اليهودية؛ مخطط تاريخي موجز

د. عبد الوهاب المسيري

من الشائع ان يقرن الدارسون تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية، من جهة، بتاريخ اليهودية، من جهة أخرى، وأن يعادلوا ويوحّدوا بينهم، وكأن الواحد هو الآخر. وهو اتجاه ساعد عليه ما يمكن تسميته بالتاريخ المقدس، أو التوراتي (أي القصص التي وردت في التوراة على هيئة تاريخ). ونحن نرى ضرورة فصل تواريخ الجماعات اليهودية في العالم عن تاريخ العقيدة اليهودية، لاعتبارات منهجية وموضوعية؛ اذ ان الخلط بينهم هو خلط بين مجالين مختلفين يؤدي الى كثير من التشوّش وعدم الفهم. وقد اعتاد الكثيرون النظر الى اليهودية كما لو كانت عقيدة متكاملة وبناء دينياً متكاملاً، اتضحت معالمه الرئيسة منذ ظهوره؛ وان هذا البناء ظل محتفظاً بهذه السمات حتى الوقت الحاضر (كما هو الحال مع الاسلام والمسيحية، على سبيل المثال). وهذا مناف للواقع؛ فتاريخ اليهودية طويل لأقصى حد؛ واليهودية، كعقيدة، مرّت بتطورات عدة عميقة، غيّرت من طبيعتها وتوجهاتها، هذا على الرغم من وجود اطروحات اساسية متواترة، مثل العهد والشعب المختار، تخلع عليها نوعاً من الوحدة. بل ان ثمة ظاهرة تنفرد بها اليهودية، وهي ما يمكن تسميته بالخاصية الجيولوجية؛ وهو ان اليهودية لم تقم باستيعاب العناصر المختلفة التي دخلتها، ولم تمزجها، ولم تفرض عليها حداً ادنى من التناسق الداخلي؛ وانما اكتفت بضم العناصر الجديدة، بحيث نجد ان اليهودية مكوّنة من أفكار متعايشة دون تمازج، تشبه الترسّبات الجيولوجية المتراكمة، الواحد فوق الآخر، عبر الزمن. ولذا، نجد أن هنالك افكاراً وحدانية متطرفة عند الانبياء، وافكاراً حلولية عند القباليين، وسمها الحاخامات بانها شكل من اشكال الشرك. ونجد رؤى متناقضة تماماً لله بخصوص مفاهيم مثل البعث والثواب والعقاب. كما دخل اليهودية كثير من المعتقدات الشعبية التي هي اقرب الى الفولكلور. ولعل هذه السمة الجيولوجية هي التي أدت، في نهاية الامر، الى تعريف الشريعة اليهودية لليهودي على انه من ولد لأم يهودية ـ وهو تعريف يضم الملحدين الذين لا يؤمنون بالله، ومن الناحية النظرية يضم اليهود الذين تنصّروا، أو اسلموا.

ويمكن تقسيم تاريخ اليهودية، كنسق ديني وكعقيدة (منفصل عن تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية)، الى مراحل عدة أساسية (وتقسم كل مرحلة الى فترات). وفي محاولتنا لتوصيف اليهودية، سنبيّن تتابع ظهور كتب اليهود المقدسة؛ كما سنشير الى المواجهات الخمس الكبرى بين اليهودية والحضارات الوثنية والتوحيدية المختلفة.

ويمكن تقسيم تاريخ اليهودية الى ثلاث مراحل اساسية؛ سنقسم كلًّا منها الى فترات:

أولًا: يهودية ما قبل التهجير الى بابل (حتى العام ٥٨٧ ق.م.) أو العبادة اليسرائيلية (تمييزاً لها عن اليهودية ذاتها): وهي المرحلة عينها تقريباً التي أطلقنا على اليهود فيها اصطلاح